

عمر بن عبد العزيز في الأندلس

بقلم الدكتور خالد الصوفي

جميع أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية من أقصاها الى أقصاها ، كما استطاع ان يلقي الرعب والهول في قلوب اعدائه فأتى اليه ماوهم صاغرين طائعين لانه غزا بلادهم سبعا وخمسين غزوة في ظرف ستة وعشرين عاما فقط . حدثت وفاة الحاجب المنصور في سنة ٢٩٢ هـ (١٠٠٢ م) تاركا بعده دولة قوية عزيزة الجانب موطدة الأركان . بيد انه ما مضى على ذلك ثلاثون عاما فقط حتى تداعت تلك الدولة وانهارت واعلن وجهاء الناس في قرطبة الفاء الخلافة الاموية نهائيا في سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) واعلان حكومة جديدة ليس فيها شيء من مظاهر الخلافة وضعوا على رأسها عميد الجماعة ابا الحزم جهور بن محمد بن جهور .

وهنا ربما يستغرب الانسان كيف حدث هذا الانقلاب السريع وانحدرت الدولة الاموية في الأندلس من اوج عزها الى اسفل الحضيض في مدة لا تتجاوز الثلاثين عاما؟

ان الجواب على ذلك يكمن في صميم تاريخ الخلافة الاموية خلال القرون الثلاثة التي حكمت فيها الأندلس ، ويكمن خاصة في تاريخ هذه الاعوام الثلاثين التي اعقبت وفاة المنصور ابن ابي عامر . لو اردت ان ابحت في مجموعة الاسباب التي ساعدت على انهيار لخلافة الاموية لطال بي الحديث ولخرجت عن الموضوع الذي عينته لنفسي في هذه المقالة ، اذ انني اود ان اتناول بالحديث هنا تلك الحكومة التي اسست في قرطبة بعد انهيار الخلافة الاموية والتي تدل كل مظاهرها على انها كانت حكومة « جمهورية » بحتة قريبة في نظامها كل القرب من انظمة الحكم الجمهوري التي تسود معظم دول العالم الان ..

اما البحث في عوامل انهيار الخلافة الاموية وسقوطها على الرغم من المجد الذي بلفته يام الناصر والمنصور فيستحق ان يكون اساسا لقال جديد هام يعالجه احد المهتمين بالدراسات الاندلسية . ولعل الظروف تتيح لي في وقت قريب ان اتولى بنفسني الاجابة عن السؤال الذي طرحته منذ قليل .

بدأ الضعف والانحلال يتسربان الى الخلافة الاموية في قرطبة منذ عهد عبد الرحمن بن ابي عامر الذي ورت العجاجة للخليفة هشام الثاني عن اخيه الحاجب المظفر عبد الملك . فقد كان عبد الرحمن هذا طائشا ، مفرورا ، خليعا ، فاسقا لم يستطع اهل قرطبة تحمله فثار عليه احد احفاد الناصر وقتله واعلن خلع الخليفة هشام الثاني وتنصيب نفسه مكانه . ولكن هذا الخليفة الاموي الجديد ومن اتى بعده من الخلفاء الامويين بين سنة ٤٠٠ - سنة ٤٢٢ هـ (١٠٠٩ - ١٠٣١ م) اثبتوا ضعف شخصيتهم في كل المناسبات التي مرت بهم فرأى الناس ان يبدلوا العائلة

كان موسى بن نصير اول حاكم عربي دانت له اسبانيا ، وفي الوقت ذاته اول وال من قبل الخلافة الاموية في دمشق . الا ان ولايته لم تطل اكثر من ثلاثة اعوام طلب اليه الخليفة على اثرها ان يتوجه اليه في دمشق مصطحبا معه طارقا بن زياد . وعين موسى واليا على اسبانيا قبل رحيله ابن عبد العزيز بن موسى الذي حكم البلاد بين ٩٥ - ٩٧ هـ (٧١٥ - ٧١٦ م) اذ قتل في هذا التاريخ واحتل مكان وال جديد هو ابوب بن حبيب اللخمي ..

وهكذا اخذ الولاة يتعاقبون على حكم الأندلس اما بتعيين من الخليفة مباشرة او بتعيين من والي شمالي افريقيا حتى قدم عبد الرحمن الداخل الاموي الى الأندلس فاحتلها واسس لنفسه ولعقبه فيها ملكا ثابتا . ولذلك فالفترة التي سبقت قدوم عبد الرحمن الداخل تسمى « بفترة الولاة » لان حكامها كانوا نوابا عن الخليفة الاموي في دمشق . ولكن منذ ان وضع صقر قريش يده على العاصمة قرطبة اصبحت حكومة الأندلس تسمى « بحكومة الخلافة الاموية » ولو ان عبد الرحمن الناصر سيكون اول من يجرؤ على اتخاذ لقب الخلافة اذ اكتفى اسلافه باتخاذ لقب « أمير » .

وصلت الدولة العربية في الأندلس كما نعلم الى اوج ازدهارها ومجدها في عهد الخلافة الاموية ، فعصر عبد الرحمن الناصر هو عهد القوة والرخاء والعظمة والامن اذ ازدهرت فيه الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والاداب والفنون ، وخطب ود الناصر معظم ملوك العالم فارسلوا اليه بسفاراتهم يشهدون صداقته وتأييده وكانت اولى تلك السفارات من قبل قسطنطين السابع قيصر بيزنطا . وتفيض الروايات في ذكر تفاصيلها الشيقة ووصف الهدايا التي قدمتها للخليفة الناصر ، والاستقبال الرائع الذي قوبلت به في بلاط قرطبة .. ثم اعقبها سفارات متعددة من قبل ملك الصقالين بطرس وملك فرنسا لويس الرابع وخاصة سفارة امبراطور المانيا اوتو الاكبر الذي كان يومئذ زعيم النصرانية في العالم . هذا كله عدا عن السفارات الدائمة التي يتلقاها الناصر من الدول النصرانية الاسبانية في الشمال ..

ولم يكن عهد الخليفة الحكم الثاني عهد ضعف وتأخر على الرغم من اهتمامه الشديد بالمطالعة والكتب ، حتى ان مكتبته الخاصة كانت تحوي ستمائة الف (٦٠٠ الف) مجلد قرأها وعلق عليها جميعا حتى دعاه الناس بدودة الكتب .

اما عهد الخليفة هشام الثاني وحاجبه المنصور محمد بن ابي عامر فلم يكن ليقل عظمة وجلالا وقوة عن عهد الناصر اذ استطاع الحاجب المنصور ان يرمي هبة الحكم في قلوب الجميع وان ينشر الامن والعدل في

الحاكمة وسمحوا لال حمود ان يتربعوا على عرش الخلافة في قرطبة بين سنة ٤٠٧ - سنة ٤١٤ هـ (١٠١٦ - ١٠٢٣ م) ، بيد ان هؤلاء لم يكونوا عند حسن ظن القرطبيين بهم فابعدوا عن الحكم وعاد الناس الى اسناد الخلافة لاحد الامويين : المستنظر بالله .

دامت هذه التجربة الجديدة ستة اعوام اخرى تأكد أهل الاندلس على اثرها ان بني امية لم يعودوا اهلا لتسلم زمام الحكم ، فاجمعوا رأيهم على تسليمه لجهور بن محمد بن جهور الملقب بابي الحزم والذي لعب الدور الاكبر في تطورات الموقف في الفترة الاخيرة .

لكنهم عندما عرضوا عليه ذلك رفض تسلم المسؤولية فالحوا عليه ليقيتهم بعدم وجود رجل اصالح منه لتسلم ادارة البلاد انذاك ، فما كان منه تجاه الحاحهم الا ان قبل طلبهم ولكن بشروط معينة .

فان ابا الحزم ابن جهور ذلك الرجل المسن الماقل الذي رأى ما جره الحكم من ويلات ومن مأسا على الخلفاء السابقين حين عزلهم وما رآه من تقلب اهل قرطبة وحجهم للفضوى وسرعة ملهم من السلطان ووجود الكثيرين من الظالمين في الحكم ، لم يكن ليرضى بعد ذلك كله ان توضع مسؤولية الحكم في قرطبة على عاتقه وحده . فلما قبل تسلم الحكم شرط عليهم :

١ - الا يتسلم الحكم وحده بل يشاركه في ذلك وزيران اخران

٢ - الا يتخذ اي لقب من الالقاب الخلافية والملكية بل يحكم بصفته وزيراً للجماعة وممثلاً لها .

٣ - الا يتخذ قصر الخليفة مقراً له بل يبقى في نفس المنزل الذي كان يسكنه

٤ - ان يتسلم الامر مؤقتاً ريثما يحل محله شخص يتفق الناس على امارته .

وقد قبل الجميع مطالبه هذه ووافقوا عليها ، وتشكلت بذلك حكومة قرطبة الجديدة التي نستطيع ان نقول عنها بان نظامها اقرب ما يمكن الى النظام الجمهوري .

هذا وقد حاول بعض المؤرخين ايضا وعلى رأسهم المستشرق الهولندي دوزي Dozy تشبيه حكومة بني جهور بحكومة القنصلية التي انشأها نابليون بونابرت في فرنسا . فحكومة القنصلية كانت تتألف ايضا من ثلاثة اشخاص والحكم الفعلي فيها بيد نابليون كما كان الحكم الفعلي في قرطبة بيد ابي الحزم ابن جهور .

وقد قال المستشرق الاسباني المعروف «اميليو جارسيا جومث» E. Garcia Gomez عن النظام الذي اوجده ابو الحزم في قرطبة انه نوع من النظام الجمهوري البورجوازي .

على اي حال ، نرى من خلال الشروط التي فرضها ابو الحزم على مواطنيه لقبول الحكم ومن تعليق بعض كبار المؤرخين على نظام الحكم الذي اقامه في دولته بقرطبة انه نظام جديد من نوعه بعيد عن النظام الملكي او الخلافي السائد انذاك في الاندلس والمشرق الاسلامي .

ومما يؤيد قولنا في طبيعة الحكم الذي اقامه ابن جهور في قرطبة لاول مرة في تاريخ الاندلس اعماله وتصرفاته التي كانت تتميز بصورة جلية واضحة عن تصرفات باقي ملوك الطوائف الذين كانوا يحكمون الاندلس ..

حكم ابو الحزم وفقا للنظم الجمهورية الديمقراطية ، فلم يكن يريد ان يستبد في رأي او يقرر شيئاً بمفرده او يبت بقرضية دون عرضها على الوزراء الاخرين . فاذا طلب منه ان يمنح اي شيء لاحد اجاب بان ذلك

ليس من صلاحيته وانما من صلاحية المجلس الحاكم وانه ليس سوى منفذ لاحكام ذلك المجلس . واذا وجهت اليه رسالة رسمية تتعلق بشأن من شؤون الدولة رفض ان يطلع عليها بمفرده ، بل حملها الى المجلس لكي يفحصها امام الجميع قائلاً بان الرسائل لا يجب ان توجه اليه وحده بل يجب ان توجه الى مجلس الوزراء عامة . وكان يعتبر ان كلام من الوزراء يحمل على عاتقه قسطاً من تبعية الحكم ، فلا يتخذ اي قرار دون ان يكون قد نال موافقة الجميع .

لم يتخذ ابو الحزم ابن جهور خلال حكمه اية سمة من سمات الملوك . فلم يترفع عن القوم بل ظل يخاطبهم ، فيعود الرضى ويحضر الافراح ويشهد الجنائز على سابق عاداته . وذكر ابن خلدون ان ابا الحزم ابن جهور كثيراً ما كان يؤذن في الناس في مسجد قرطبة بالربض الشرقي . ولم يغير لباسه فيتشع بالطراز الذي كان يستعمله الخلفاء عادة بل ظل بلباسه العادي على بساطته . وعوضاً عن ان يتخذ لنفسه احد قصور الخلافة مسكناً له ولعائلته اكتفى بترتيب البوابين والحشم على ابوابها دون ان ينتقل الى احدها وتابع حياته في نفس مسكنه المتواضع يدير منه امور العاصمة بجد وعزم وعدل .

لم يكن ابو الحزم رغباً براعته في الحكم ورفعة قدره ، متكبراً ولا صلفاً ، بل كان من اشد الناس تواضعاً وعفة ، ظاهره كباطنه ، لم تتغير اخلافة وعاداته بتوليد الحكم ، ولم يختلف له حال من الفتاة الى الكهولة .

وكان من اشهر ما اتاه لاصلاح الحال في قرطبة ، امره بمنع شرب الخمر ، فقد كان يرى ما يؤدي اليه الافراط في شرب الخمرة من تدهور خلقي وصحي ، فمنع تعاطي ذلك وكسرتان الخمرة في جميع انحاء مملكته . وقد مدح الشاعر ابن زيدون ابا الحزم لقيامه بهذا العمل فقال فيه ..

اباح حمى الخمر الخبيثة حائظاً حمى الدين من ان يستباح له حد فطوق باستئصالها المرمنة يكاد يؤدي شكرها الحجر الصلد كما ان من اهم اصلاحاته الداخلية طرده من قرطبة عدداً كبيراً من النمامين الثرثارين الذين كانوا يعيشون من الوشاية واثارة المشاكل ، وقد عين للاحتقن عدداً من الموظفين كانوا يتقاضون رواتب كالقضاة . كما انه اخرج من قرطبة الاطباء المزيفين الجهلة ، الذين كانوا يسمون انفسهم اطباء دون ان يكون لديهم شيء من التجربة او العلم ، وامر بتأليف لجنة من اشهر الاطباء لفحص الذين يدعون معرفة الطب ويرغبون في ممارسته في المستشفيات .

وزيادة في الحرص على السلامة العامة ، فان ابا الحزم ابن جهور كان يعهد الى اقرب وزرائه واثقتهم لديه بحراسة المدينة والسهر على الامن فيها بواسطة رجالهم واعوانهم ليلاً نهاراً . وكان يوجد في كل حي من الاحياء عدد من الرجال المسلحين المكلفين بالتجوال في الشوارع لتأمين راحة الجميع . اما الاحياء التجارية التي تضم المخازن والبضاعة فكان لكل منها بابها الذي يفلق في ساعة معينة . كما ان باقي الاحياء كلها كان لها ابواب تغلق عند اللزوم ، اي في حالة حدوث اضطرابات ليلية .

لكن استطاع منع الاشقياء من التنقل بسهولة بين حي وآخر .. وكانت نوبة كل حارس تدوم يوماً كاملاً ، ثم حين تنتهي مهمته سلم سلاحه لمن يأتي بعده كما ينسب بما حدث خلال نوبته اذا كان هناك شيء يذكر .

وقد خفف ابو الحزم خلال حكمه من تطبيق العقوبات الصارمة على

كانوا لا يفترون عن ترديد اسم ابي الحزم والدعاء له بل لقبوه بابي الشعب وحامي الدولة .

اعتبر جهور بن محمد بن جهور نفسه وارث الخلافة الاموية فسي اسبانيا لتسلمه الحكم في قرطبة مباشرة بعد انهيار تلك الخلافة ، ولذلك فكر منذ وصوله الى الحكم بالسيطرة على الاندلس كلها ، فكتب عدة رسائل الى مختلف ملوك الطوائف يدعوهم فيها للقدوم الى قرطبة والاعتراف بسلطانه ، ولكن اغلبيتهم اعتذروا عن المجيء بتقديم حجاج مصنعة ، مدعين ان لديهم في ممالكهم امورا في غاية الخطورة لا تسمح لهم بمغادرتها في ذلك الحين . وقد لمح بعض اولئك الملوك خضوعهم - ولو اسميا - لابي الحزم وتمنوا له العز والسؤدد والسعادة والنجاح . ولكن اهم اولئك الملوك في الاندلس اظهروا عدم اهتمامهم به واكدوا استقلالهم ببلادهم وهم ملوك طليطلة وسرقسطه ومالقه واشبيلية وغرناطة وبطليوس .

ولكن ابن جهور تجاهل استخفافهم به ومساعدتهم على زيادة الانقسام في اسبانيا واجابهم مهنتا اياهم بالفيرة التي ظهرت منهم في الحرص على المصلحة العامة ، وفي تأمين سلامة المقاطعات التي عهد اليهم بادارتها مذكرا اياهم بان اطراد تقدم الدولة وقوتها لا يكونان الا باتحاد مختلف اجزائها .

اذن على الرغم من الاجوبة الجافة التي قوبل بها ابو الحزم ابن جهور من قبل ملوك الطوائف فان علاقته لم تسؤ معهم ، وكثيرا ما كانوا يلجأون اليه لفض المنازعات فيما بينهم ، فيتوسط لدى بعضهم من اجل البعض الآخر ، وحين يتعدى عليه ذلك كان يفتح ابواب مدينته لايواء الملك او الامير المفلوب فيحيطه بانواع عنائته ويسخ عليه عطفه وكرمه حتى ذاع صيته في الافاق وصار الناس يتحدثون عن صلاح حكمه وعن الفوائد التي جنتها دولتهم في ظل ذلك النظام الجمهوري .

هذا ومن المؤكد انه لو تخلى ملوك الطوائف عن انانيتهم لدى انهيار الخلافة الاموية واستجابوا لدعوة ابي الحزم ابن جهور حين اهاب بهم ان يعترفوا بسلطته وبقوا على اعتبارهم قرطبة كعاصمة لاندلس ، وتناسوا بعض الخلافات السياسية والمطامح الشخصية التي كانت تفرق فيما بينهم ، لاستطاع الجهاورة بالصفات التي كانوا يتمتعون بها ان يوحدوا قوى العرب في اسبانيا من جديد ولخالوا دون زوال الحكم العربي في ذلك الجزء الهام من القارة الاوروبية .

خالد الصوفي

الشعر العربي في المهجر الأمريكي

دراسة فنية

بقلم
وديح ديب

السعر ٢٠٠ غرش لبناني

المتنبين واتبع سياسة اللين والمحكمة فممنع انزال الحدود ما وجد الى ذلك سبيلا ، واجتهد في منع الكي بالحديد لعدم اجماع المجتهدين على ضرورة ذلك ولانه رأى ان اللين والاعتدال ربما ساءدا على القضاء على الفوضى المنتشرة حينذاك في البلاد . وفعلا فقد اعجب الناس بسياسة ابي الحزم وكفوا عن التنظالم والتسافك بخلاف ما كانوا عليه تحت الضغط الشديد حين كان جيايرة اصحاب الشرطة يسومون الناس سوء العذاب واصبح لا يسمع في قرطبة من حوادث الشر الا الشيء النادر .

اما من الناحية الاقتصادية فقد اشتهر ابو الحزم خاصة بنزاهته فالخلفاء الامويون قبله ، كانوا يعتبرون بيت المال ملكا خاصا لسهم يتصرفون به كما يشاؤون وينفقون منه دون حساب ، اما هو فكان يعتبر ان بيت المال للامة ولذلك رفض رفضا باتا ان يوضع تحت تصرفه ، وعهد به الى جماعة من الثقة في المدينة سلمهم اياه بعد ان احصاه عليهم وكلفهم بتنظيم حساباته تنظيما دقيقا لمعرفة الوارد والخارج لكي لا يضح على الشعب قرش واحد من بيت المال . وكان اذا سئل شيئا من المال اجاب « ليس لي عطاء ولا منع ، هو للجماعة وانا امينهم » .

وقد جعل ابو الحزم لنفسه وللوزراء مبلغا معينا يتقاضونه في كل شهر من بيت المال لا حق لهم في تخفيه ابدا .

ورغم ما عرف عن حب ابن جهور لجمع المال وانماء ثروته الخاصة ، فان ذلك لم يكن ليدفعه في يوم من الايام الى خيانة امانة الشعب والحصول على المال بالطرق غير المشروعة . ولكن مع ذلك فان الخطة الاقتصادية التي اتبعها في معيشته اثناء وجوده في الحكم ادت الى مضاعفة الثروة التي يملكها حتى اصبح اغنى رجل في قرطبة . وحين يتحدث ابن عذاري المراكشي عن ابي الحزم ابن جهور يعتمه بالتقدير على نفسه وبالامتناع عن بذل المال للمساعدة ويقول انه لولا وجود هاتين الصفتين فيه لكمل لو ان بشرا يكمل .

ولكن حرص ابن جهور على جمع المال لم يكن ليمنعه من بذل الجهود الجبارة لاعادة الازدهار الاقتصادي الى المدينة ، فقد عمل ما بوسعه لاقامة العلاقات الودية مع جيرانه من ملوك الطوائف واستطاع ان يقيم نوعا من السلم مع البرابرة ، فساد الامن والطمانينة واخذ الناس يمارسون تجارتهم بحرية تامة فامتلات الاسواق بالبضائع المختلفة ، ورضخت اسعار الحاجيات ، وعم الرخاء في قرطبة ، وصار الناس يؤمون المدينة افواجا حتى زاد عدد السكان زيادة كبيرة واخذوا في شراء الاراضي وبناء الدور وخاصة في الاحياء المتهدمة ايام الفتنة ، فارتفعت لذلك اسعار العقارات والدور واستعادت قرطبة بذلك قسما كبيرا من مجدها السالف .

ويذكر صاحب كتاب المعجب ان من جملة النظم التي اتبعها ابو الحزم لتحسين المستوى الاقتصادي للمدينة ، هو انه احصى على كل تاجر رأسماله ولم يسمع له بالتفريط بشيء منه بل اضطر ، ان يعيش بالربح رأسماله ، وجعله عرضة للمحاسبة والتفتيش في كل حين .

هذه الاصلاحات المتنوعة كلها التي قام بها رئيس دولة قرطبة من بني جهور ، والتي شملت مختلف النواحي الادارية والسياسية والاقتصادية والعمرائية جعلت قرطبة تجني اجل الفوائد واعظمها ، وعلى الرغم من ان القرطبيين لم يكونوا قد اعتادوا على رؤية ذلك النوع من الحكم ، الا انهم